تفسير سورة المجادلة

وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء ٢٨

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذى وَسِع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخارى. وأخرجه النسائى ،وابن ماجة ، وابن جرير. وفى رواية: أنها قالت: تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى على بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ،وهى تقول : يا رسول الله ، أكَلَ شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كَبُرَت سنِّى ، وانقطع ولدى ، ظَاهَرَ منِّى ، اللهم إنى أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (١). وقال عروة: وكان أوس امرأ به لمم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ،وتشتكى إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت : فىَّ ـ والله ـ وفى أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة « المجادلة » ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىَّ يوماً فراجعته بشىء فغضب فقال: أنت علىَّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة، ثم دخل علىَّ فإذا هو يريدنى عن نفسى. قالت : قلت : كلا ، والذى نفس خويلة بيده ، لا تخلص إلىَّ وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت: فواثبنى وامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى، قالت : ثم خرجتُ إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثياباً، ثم خرجتُ حتى جئت رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيتُ

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠) من سورة الرعد .

منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « ياخويلة ، ابنُ عمك شيخ كبير، فاتقى الله فيه». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُرِّيَ عنه ، فقال لي : « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك » . ثم قرأ عليَّ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله : ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : «مُريه فليعتق رقبة» . قالت: فقلت: يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال: « فليصم شهرين متتابعين ». قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وَسْقًا من تَمر». قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإنا سنعينه بعَرَق من تمر ». قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بعَرَق آخر ، قال: « فقد أصبت وأحسنْت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً». قالت: ففعلت .ورواه أبو داود[1] وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خُوَيلة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سَلَمة بن صَخْر فليس فيه أنه كان سبب النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة ، من العتق أو الصيام ، أو الإطعام ، كما روى الإمام أحمد عن سلمة بن صخر الأنصاري قال : كنتُ امرأ قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري ، فلما دخل رمضان تظهَّرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان ، فَرَقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فأتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينا هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحتُ غدوتُ على قومي فأخبرتهم خبري وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري. فقالوا : لا، والله لا نفعل ؛ نتخوف أن ينزل فينا ـ أو يقول فينا رسول الله ﷺ ـ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال: فخرجتُ حتى أتيتُ النبي ﷺ ، فأخبرته خبري. فقال لي : « أنت بذاك ». فقلت : أنا بذاك. فقال: « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . قال « أنت بذاك » قلت:نعم ، ها أناذا فامض فيَّ حكم الله تعالى ، فإني صابر له . قال : « أعتق رقبة » . قال : فضربت صفحة رقبتي بيدي وقلت: لا ، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال : « فصم شهرين » .قلت : يا رسول الله ، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام ؟ قال: « فتصدق » . فقلت : والذي بعثك بالحق ، لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشَى ما لنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بني زُرَيق فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال: فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيقَ وسوءَ الرأي ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السَّعَة والبركة ، قد أمر لي بصدقتكم ، فادفعوها إليَّ . فدفعوها إليَّ . وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجة ، واختصره الترمذي وحسَّنه[2] . وظاهر السياق : أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خُوَيلة بنت ثعلبة ، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

---

(١) المسند (٦/ ٤١٠) وأبو داود (٢٢١٤ ، ٢٢١٥)، وقال الألباني : « حسن دون قوله :« والعرق » .

(٢) المسند (٤/ ٣٧) وأبو داود (٢٢١٣) وابن ماجه (٢٠٢) والترمذي (٣٢٩٩) .

فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها : أنت عَلَيَّ كَظَهْرِ أمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله : ﴿ منكُم ﴾ فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، واستدل الجمهور عليه بقوله: ﴿ من نِسَائِهِمْ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ،ولا تدخل في هذا الخطاب.

وقوله :﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أي : لا تصير المرأة بقول الرجل : «أنت عليَّ كأمي » أو « مثل أمي » أو « كظهر أمي » ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التي ولدته ؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ﴾ أي : كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي : عما كان منكم في حال الجاهلية . وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم .

وقوله :﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾: اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم. وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق.وقال أحمد بن حنبل:هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة.

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه أنه الجماع .وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد . عن سعيد بن جبير : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعني : يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم .وقال الحسن البصري : يعني الغشيان في الفرج . وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال ابن عباس : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ والمس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهري ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان . وقال الزهري : ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر. وقد رَوَى أهل السنن عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله ، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن أُكَفِّرَ. فقال : « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ » . قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر . قال: « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ، عز وجل ».وقال الترمذي : حسن غريب صحيح (١) . ورواه أبو داود والنسائي من حديث عكرمة مرسلاً . قال النسائي : وهو أولى بالصواب(٢) .

وقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أي: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعي ما أط[illegible] ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم

(١) أبو داود (٢٢٣) والترمذي (١١٩٩) .

(٢) أبو داود (٢٢١ ، ٢٢٢) والنسائي (٣٤٥٩) ، وصححه الألباني .

السلمى ، فى قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه (١) . وقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أى : تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى : خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم .

وقوله : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ : وقد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب ، كما ثبت فى الصحيحين فى قصة الذى جامع امرأته فى رمضان ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : شرعنا هذا لهذا .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : محارمه فلا تنتهكوها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم ، أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : أهينوا ولعنوا وأخزوا ، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى : واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى: فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه . ثم قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى :فيخبرهم بالذى صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ أى: من سر ثلاثة ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أى: يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه لهم، كما قال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨] . وقال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] ؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ، ولا شك فى إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو ، سبحانه ، مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شىء . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح

(١) الموطأ (٢/٧٧٧) والمسند (٥/٤٤٧) ومسلم (٣٣/٥٣٧) .

الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قال مجاهد : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قال: اليهود . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وزاد : كان بين النبى ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبى ﷺ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ـ أو : بما يكره المؤمن ـ فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبى ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ . وقوله: ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ أى: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم ، والعدوان ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يُصرون عليها ويتواصون بها .

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾: عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام . قالت: فقال رسول الله ﷺ : «يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش». قلت : ألا تسمعهم يقولون: السام عليك ؟ فقال رسول الله: « أو ما سمعت أقول: وعليكم؟ » . فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (١) . وفى رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة. وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيه ، ولا يستجاب لهم فينا » (٢) . وروى ابن جرير: عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه، إذ أتى عليهم يهودى فسلَّم عليهم ، فردوا عليه، فقال نبى الله ﷺ : « هل تدرون ما قال ؟». قالوا : سلم يا رسول الله . قال: « بل قال : سام عليكم، أى : تسامون دينكم ». قال رسول الله: « ردوه » . فردوه عليه . فقال نبى الله : «أقلت : سام عليكم ؟ » . قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك » أى : عليك ما قلت . وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة، بنحوه (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى: يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم فى الباطن، ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله

(١) مسلم (٢١٦٥ / ١٠) .
(٢) البخارى (٦٠٣٠) ومسلم (٢١٦٦ / ١٢) .
(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١١) ومسلم (٦/٢١٦٣) .

بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو، أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك ، ثم يقولون فى أنفسهم: ﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ؟ ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إسناد حسن ولم يخرجوه (١) .

ثم قال الله مُؤدباً عبادة المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أى : كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مَالأهم على ضلالهم من المنافقين ، ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها . وروى الإمام أحمد : عن صفوان بن مُحْرِز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كَنَفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعْطَى كتابَ حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » . أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى : إنما النجوى ــ وهى المُسَارّة ــ حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ، ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله. وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذ على مؤمن،كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ :«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَينّ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». أخرجاه(٣) . وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فإن ذلك يحزنه » . انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض فى المجالس : ﴿يَا أَيُّهَا

(١) المسند (٦٥٨٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٢) المسند (٥٤٣٦) والبخارى (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨ / ٥٢) .
(٣) المسند (٤٠٩٣) والبخارى (٦٢٩٠) ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧) .
(٤) مسلم (٢١٨٣/ ٣٦) .

الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ وقرئ : « في المجلس » ، ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح : «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة»(١) وفي الحديث الآخر : « ومن يسّر على مُعْسِر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »(٢) . ولهذا أشباه كثيرة ؛ ولهذا قال: ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوسَّعوا ». وأخرجاه في الصحيحين(٣) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيدكم »(٤) . ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : « من أحبَّ أن يَتمثَّلَ له الرجال قياماً ، فَلْيَتبوأْ مَقْعَدَه من النار »(٥) ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم». وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم. فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم. وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . وفي الحديث المروي في السنن : أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلي ؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهم بذلك ، كما رواه مسلم عن أبي مسعود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لِيَلِيَنِي منكم أولو الأحلام والنُّهَى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »(٦) . وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه . وروى الإمام أحمد: عن أبي مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليلني منكم أولو الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم». قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً . وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذي(٧) .

وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة . ولهذا كان أبي بن كعب ـ سيد القراء ـ إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : « ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ». وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه، عملاً

---

(١) البخاري (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣/ ٢٤) . (٢) مسلم (٢٦٩٩/ ٣٨) .
(٣) المسند (٤٧٣٥) والبخاري (٦٢٦٩) ، ومسلم (٢١٧٧/ ٢٨).
(٤) البخاري (٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨ / ٦٤) .
(٥) أبو داود (٥٢٢٩) والترمذي (٢٧٦٦) وقال :« إسناد حسن » .
(٦) مسلم (٤٣٢ / ١٢٢) .
(٧) المسند (٤/ ١٢٢) ومسلم (٤٣٢/ ١٢٢) وأبو داود (٦٧٤) وابن ماجه (٩٧٦) .

بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذى أوردناه . ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع ، وفى الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة فى الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ، أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه،وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه» (١) . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » .ورواه أبو داود والترمذى . وحسنه الترمذى (٢).

وقوله : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً فى حقه ، بل هو رفعة ومزية عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رَفَع الله قدره ، ونَشَر ذكره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه . وروى الإمام أحمد عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، أن نافع بن عبد الحارث لقى عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. قال :وما ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر: استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال: يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين ». وهكذا رواه مسلم (٣).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله ﷺ ، أى : يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ؛ ولهذا قال : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ . ثم قال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ أى: إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أى: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم .وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى

---

(١) البخارى (٦٦) ومسلم (٢١٧٦ / ٢٦).

(٢) المسند (٦٩٩٩) وقال الشيخ شاكر :« إسناده صحيح »، وأبو داود (٤٨٤٥) ،والترمذى (٢٧٥٢) .

(٣) المسند (٢٣٢) ومسلم (٢٦٩/٨١٧) .

على بن أبى طالب ، رضى الله عنه. قال مجاهد : نهوا عن مناجاة النبى ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا على بن أبى طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبى ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ إلى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدى النجوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا . وقال قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ، حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبى الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ربع ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤٣] . وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ يعنى : اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود . ثم قال: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى: المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ،وهى اليمين الغموس ،ولا سيما فى مثل حالهم اللعين، عياذاً بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون ،وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه،وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال: ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ اى :أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ اى :فى مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة .

ثم قال: ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ،

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى: يحلفون بالله ، عز وجل ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس فى الدنيا ؛ لأن من عاش على شىء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ؛ولهذا قال: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ، عز وجل .

ثم قال منكراً عليهم حسبانهم : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . عن سعيد بن جُبير ؛ أن ابن عباس حدثه: أن النبى ﷺ كان فى ظل حجرة من حُجَره، وعنده نفر من المسلمين قد كان يَقلصُ عنهم الظل ، قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه ، فقال: «علام تشتمنى أنت وفلان وفلان ؟» ــ نفر دعاهم بأسمائهم ــ قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله ، عز وجل: ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ . رواه الإمام أحمد وابن جرير بنحوه (١). إسناد جيد ولم يخرجاه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٣، ٢٤] . ثم قال : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطانُ حتى أنساهم أن يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه؛ ولهذا روى أبو داود عن أبى الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من ثلاثة فى قرية ولا بَدْو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية » . قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة (٢) .

ثم قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين للحادين لله ورسوله، يعنى: الذى هم فى حَدٍّ والشرع فى حَدٍّ ، أى: مجانبون للحق مشاقون له،هم فى ناحية والهدى فى ناحية ، ﴿ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أى: فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب ، الأذلين فى الدنيا والآخرة . ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾

(١) المسند (٢١٤٧) وقال الشيخ أحمد شاكر « إسناده صحيح » وابن جرير فى التفسير(٢٨/ ١٧).
(٢) أبو داود (٥٤٧) ، وصححه الالبانى .

أى: قد حكم وكتب فى كتابه الاول وقدَره الذى لا يُخالَف ولا يُمانع ، ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة للمتقين ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] . وقال هاهنا : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لاعدائه . وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أى: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الاقربين، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الآية [آل عمران:٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤] . وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة: « ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته » .

وقيل فى قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾: نزلت فى أبى عبيدة ،قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾: فى الصديق ، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾: فى مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾: فى عمر ، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله أعلم . قلت :ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ،ولعل الله أن يهديهم . وقال عمر: لا ارى ما رأى يا رسول الله ، هل تمكنى من فلان ــ قريب لعمر ــ فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين . . . القصة بكاملها .

وقوله :﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى: كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته. وقال السدى :﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ : جعل فى قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس :﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أى : قواهم .وقوله :﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة . وفى قوله :﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾: سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عَوَّضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ،والفضل العميم . وقوله:﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أى: هؤلاء حزبُ الله ،أى: عباد الله وأهل كرامته ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾: تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال: ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.